دموع البصل

دموع البصل

ـ تتزوجينني .

ـ هل جننت يا رجل . . من أنت . . ومن تكون حتى تطلب الزواج مني بالتليفون . . حتى اسمك أنا لا أعرفه .

ـ وما المانع أن تعرفيه . . اسمي عمرو .

ـ وهل تعتقد أن معرفة اسمك الكريم هذا يكفي أن تطلب مني الزواج حتى وأنت لا تعرف من أنا .

وللعجب أنه انطلق يحكي لها عن ذاتها كل كبيرة وصغيرة في حياتها تحدث معها، عنها بكل تفاصيل حياتها . . ما تحب . . وما تكره . . تكلم معها عن ماضيها وحاضرها ـ إنها سيرة ذاتية كاملة عنها لا يعرفها إلا من كان معايشها ويعيش معها . وهذا ما أستنفر بداخلها أن تعرفه وتتعرف عليه . . وتعرف منه كيف له ومن أين له بكل هذه التفاصيل الدقيقة عنها .

كان هذا هو أول ملامح شخصيته ـ الغموض ـ الحرص الشديد .

قال وهو يحتضن يديها على ضفاف النيل :

ـ ميرفت . . . أنت تسرين في عروقي كسريان النهر في أرض الوادي ـ حبيبتي ـ منذ أن عرفتك قبل أن أراك وأنا أنتظر يوم أن ترضي عني وتقبلني زوجًا لك .

قالت ميرفت بتحد :

ـ ليس قبل أن أعرف ـ كيف لك بكل تفاصيل حياتي الدقيقة .

وكان لميرفت تجربتان سابقتان في الزواج : الأولى وهي في سن يطلقون عليه اليوم سن الطفولة، وكان الزوج يكبرها بأكثر من خمسة عشر عامًا . . أحبته بكل مفهوم الحب في هذا العمر، وهذا الزمن، أنجبت منه الذكر والأنثى، ولكنه كان خائنًا وكذابًا ـ وكانت تكره الخيانة والكذب بكل ألوانه حتى لو كان أبيض ـ فانفصلت وتنازلت عن كل حقوقها مقابل احتفاظها بأبنائها . وعندما تزوجت للمرة الثانية لم يستمر الزواج أكثر من عام حيث كان تهديد والد أبنائها بحرمانها منهم، فعاشت تتخبط ما بين حبها لأولادها ورغبتها في الزواج والاستقرار .

فقد كانت في منتصف العشرينات من عمرها، فتزوجت عرفيًا حتى تستطيع أن تخفي زواجها عن والد أبنائها وخوفًا من تهديده لها، ولكن هذا جعلها تشعر أنها تسرق حقها في الحياة في الظلام، شعرت أن الحلال يتحول معها إلى خطيئة والخطيئة يعلنها والد أبنائها من خلال كل نزواته بلا خجل .

تركت لقلبها العنان كي يفرح، تركت لشبابها الزمام كي يجمح . حقًا كان عمرو يصغرها بعدة سنوات، ما المانع في أن تستقر، ما المانع أن تفرح وتمرح مع شاب لم يسبق له الزواج يعوضها ما فاتها من سنوات وسنوات قضتها في صراعات وحروب مع كل من حولها تحت شعار "العادات والتقاليد" .

لقد أصبح أولادها في عمر الشباب، فالابنة حصلت على الثانوية العامة

والتحقت بالجامعة وعقد قرانها على أحد زملائها، أما الولد فبعد رسوبه في الثانوية العامة ـ وكان صعبًا عليها أن تسيطر عليه وعلى انضباطه ـ أخذه والده ليكون تحت سيطرته، فالشاب في مثل هذا العمر يكون أكثر احتياجًا للأب لقوته وحزمه.

عاشت ميرفت وعمرو أربعة أعوام من أجمل سنوات العمر، والغريب أنها كانت كلما حاولت أن تعرف من أين له بكل هذه المعلومات عنها قبل الزواج أوهمها أن من أهم خصائص عمله في جهاز الأمن هي المعرفة والسرية.

أشجان جارة ميرفت طفلة في شكل امرأة.. أرملة جميلة، مرحة (شعنونة) لها ضحكة رنانة، توفى زوجها وترك لها طفلين في سنوات عمرهم الأولى ولم يترك لها ما يعينهم على الحياة، كانت من عائلة متوسطة تكاد تكون (مقطوعة من شجرة) تبنتها ميرفت، وكانت عوضًا عن ابنتها التي تزوجت وسافرت، كانت تترك لها أبناءها معظم الوقت للبحث عن عمل، رغم أن أسلوب حياتها ومعيشتها تجعلك تظن أن لها من الدخل المادي ما هو أعلى بكثير من إمكانياتها الفعلية، وكان هذا التناقض يثير في قلب ميرفت الشكوك.

قال عمرو بعد أن تزوج ميرفت:

ـ (توته) وكان دائمًا ما يدللها بهذا الاسم ـ أرجوك يا حبيبتي قبل أن ننتقل إلى مسكننا الجديد حجمي علاقتك مع جارتك هذه (أشجان) فأنا لا أخفيك سرًا أن التقارير عنها غير مريحة، وأنا رجل ذو مركز حساس ولا أحب لزوجتي أن تشوه سمعتها بعلاقتك بهذه اللعوب الصغيرة، صدقيني أنا لا أظلمها ولكن أعرفها.

ـ يا حبيبي إن ما تقوله يفتقد إلى المصداقية فأنا أعايشها من سنوات طويلة وهي مثل أختي الصغيرة أو تجاوزًا مثل ابنتي وليس ذنبها أنها ترملت صغيرة وجميلة، ثم لماذا مسكن جديد ونحن هنا في مسكني ملكي...

قاطعها في انفعال مفتعل:

ـ ها قد قلتها مسكني/ ملكي... لا... لن أدع الناس تقول إني ما تزوجتك إلا لأجل بيتك وطمعًا في دخلك من مشروعك التجاري ـ لا، أرجوك.

جاءتها أشجان ذات يوم مهللة ـ فرحة ـ قائلة:

ـ ميرفت باركيلي لقد تقدم لخطبتي اليوم صديق شاب وسيم ضابط بحري من دولة عربية سيأخذني معه و..

قاطعتها ميرفت:

ـ وماذا عن أولادك أرجوك تريثي في اتخاذ القرار.

قالت ضاحكة:

ـ ما تقلقيش أنا مش ساذجة زيك، ما تزعليش مني، أنا صحيح أصغر منك بكثير بس أشطر منك برضة بكثير، على فكرة أنا كلمت وسام خطيبي عنك كثير، وهو عايز يتعرف عليك، هو مسافر آخر الشهر وسيعود في ديسمبر للاحتفال بزواجنا ليلة رأس السنة (وكان ذلك في شهر سبتمبر).

قلت لها :

ـ يسعدني سعادتك، وبالمناسبة يمكنك دعوته الأسبوع القادم يوم عيد ميلاد عمرو لنتعارف جميعًا .

كانت حفلة عيد الميلاد ـ حفلة توديع أيضًا لوسام ـ واحتفال بإعلان خطوبة أشجان .

مر شهر على هذه الليلة الجميلة، واقتربت ليلة رأس السنة وفي صباح يوم بارد من أيام ديسمبر تم القبض على أحد أصحاب شركات توظيف الأموال، وكانت المفاجأة التي جعلتني أعطي لزوجي الحق في نظرته إلى أشجان . . لقد جاء ذكر اسمها في الجريدة عن علاقة مشبوهة مع صاحب الشركة الذي منحها بعض كيلوات الذهب ورصيد هائل من المال . .

جاء عمرو حاملاً نفس الجريدة، وللعجب وجدته يبحث عن أشجان راغبًا في مساندتها في هذه الأزمة، ولكن مرفت قالت له مستنكرة :

ـ كيف تقف مع من باعت شرفها، وعبثت بقيم دينها، حسبتك ستقول إن هذا سند لتقييمك لها في السنوات السابقة .

اختفت أشجان هي وصغارها، كما اختفى عمرو من حياة ميرفت، وجاءت ليلة رأس السنة وجلست ميرفت تجهز لها وهي سارحة مسترجعة كل حياتها مع عمرو . . خمس سنوات منذ أن تزوجا، ولماذا اختارها هي بالذات، واكتشفت أننا أحيانًا نتجاهل الحقيقة لأننا لا نحب أن نواجهها أو نعرفها لأننا وجدنا السعادة في الغش وعدم معرفة الحقائق فالحقيقة تؤلم،

لقد علمت أن عمرو كان له معرفة سابقة بأشجان ـ التي عرف منها كل ما يخص حياة (ميرفت) بكل تفاصيلها، كانت تنقلها له أشجان ربما كان يستدرجها، ربما كان يبحث عن صيد وتخيل أنه عثر على صيد ثمين من خلال أشجان، فألقى بشباكه على ميرفت بعد أن تأكد أن أشجان خالية الوفاض . . هل يمكن . . وهل يمكن . . وهل يمكن . . كثير من التساؤلات دارت في رأس ميرفت وهي تعد لحفلة رأس السنة ولا تعلم إن كان هناك مدعوون قادمون أم لا . المهم الطقوس . . ويأتي أو لا يأتي أحد . . غير مهم .

طرقات قوية سمعتها ميرفت على باب شقتها، حاولت أن تخفف دموعها التي رغمًا عنها بانت تملأ وجهها . . فتحت الباب وكانت المفاجأة أنه وسام وفي يده الجريدة، اندفع داخل الشقة كالثور الهائج قائلاً :

ـ لقد اختفت . . لقد انشقت الأرض وابتلعتها . . أنا من عرفها على هذا الملعون صاحب شركة توظيف الأموال . . لماذا فعل بي هذا . . لماذا خدعوني . . لقد فضحهما القدر على صفحات الجرائد . . ما كنت أتصور أن تهرب مني . . تبيع حبي .

تنبه إلى دموعي فقال :

ـ لا تحزني عليها . . لقد علمت أنها تزوجت بالأمس رجلاً طمع في مالها الذي أخذته من حرام . . فبعث لها من سينصب عليها . . المشكلة أني لا أعرف من هو . . آه لو أعرفه .

قالت ميرفت :

ـ إذا كنت تريد أن تعرفه . . فهو عمرو زوجي الذي طلقني وذهب يلهث وراء ثروتها . . وأنا غير نادمة عليه ولا عليها .

نظر وسام إلى وجهها المبلل بالدموع وقال :

ـ إذًا لماذا كل هذه الدموع؟

ابتسمت وهي تنظر وتشير إلى بصلة حملتها في يدها وقالت :

ـ هذه . . الدموع . . دموع البصل .